# الكتاب

## عمرو بن بحر الجاحظ

## ١٦٠ ـ ٢٥٥ هـ

تميز العصر العباسي الاول بالثراء والرخاء . والانفتاح على ثقافات مختلفة . والاقبال على العلوم والآداب . والتوجُّه الى التأليف والتصنيف والترجمة . وقد نبغ رجالٌ عظام في شتى المعارف . رفدوا المكتبة العربية بتراث قيّم تعاقبت الاجيال على الاحتفاظ به والافادة منه . ويُعد الجاحظ ـ وهو من رُوّاد الأساليب الرفيعة في الكتابة ـ من ابرز هؤلاء الرجال العظام الذين خلّدوا انفسهم بعطائهم الفكري من خلال الكنوز النافعة التي خلّفوها .

### مولده ونشأته :

أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي . لُقّب بالجاحظ لجحوظ عينيه ولد في البصرة حوالي سنة ١٦٠ للهجرة . وتوفي ابوه وهو صغير . وفي مدينته التي كانت آنذاك محج طلاب المعرفة تعلّم مباديء القراءة والكتابة في أحد كتاتيبها . وحينما اصبح يافعاً أخذ يتردّدُ على حلقات العلم التي تعقد في المساجد . ويختلف الى سوق المربَد . يتلقّى الفصاحة من شفاه العرب الذين يفدون الى هذه السوق قال ياقوت الحموي : « سمع من أبي عبيدة . والأصمعي . وأبي زيد الانصاري . وأخذ النحو عن الأخفش وكان صديقه . وأخذ الكلام عن النَظام . وتلقّف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد »(٦٢٣) وأفاد من أبي يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب ابي حنيفة . وصالح بن جناح اللخمي . وثُمامة بن أشرس النميري . ويزيد بن هرون . والسريّ بن عبدويه . والحجّاج محمد بن حمّاد بن سلمة . وسواهم ... وكان مفرطاً في القراءة . يكتري دكاكين الوراقين . ويعتكفُ فيها . ليقف على ماياتي اليها من كتب . ويستوعبُ ممارفها . ويحفظ مايروق له منها . ولم يبخل بالمال حينما يتوفر لديه لشراء الكتب قال محمد بن سليمان الجوهري : « كنا نصحبُ الجاحظ على سائر احواله من جدّ وهزل .قال : فخرجنا يوماً لنزهة .فبينما نحن على باب جامع البصرة ننظر شيئاً أردناه . اذ عارضتْ امرأة معها أوراق مقطعة . فعرضتْ علينا فلم نجد فيها طائلاً . فتركناها وانصرفنا .

وتخلفَ معها الجاحظ ونحن ننتظره فأطال . ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً . وأخذ الاوراق وقال : انتظروني ومضى بها الى منزله . فلما عاد اخذنا نهزأ به ويقول : فُزتَ بقطعةٍ من العلم وافره . وضحكنا فقال : أنتم حمقى والله . انَّ فيها ما لا يوجدُ الاَّ فيها . ولكنكم جهالٌ لاتعرفونَ النفيسَ من الخسيس »(٦٣٤) . وقال ابو هفّان : « لم أر قطُّ ولا سمعت مَنْ أحبَّ الكتبَ والعلومَ اكثرَ من الجاحظ . فإنه لم يقع بيده كتابٌ قطُّ الاَّ استوفى قراءته كائناً ماكان »(٦٣٥)

والى جانب طلب العلم والمعرفة كان يلتمس اسبابَ العيش عن طريق العمل . وقد قيل : انه كان يبيعُ الخبزَ والسمكَ على ضفة نهر صغير بالبصرة يُعرفُ بسيحان . ويبدو أنَّ أمه كانت في باديء امره تتولى الانفاق عليه . وقد رُوي انها ضاقتْ به حين رأته منهمكاً في اقتناء الكتب والجلوس اليها ساعات طوالا . فطلبَ منها يوماً طعاماً . فجاءته بطبق مليء بكراديس أودعها البيت « فقال : ماهذا ؟ قالت هذا الذي تجيءُ به . فخرج مغتماً . وجلس في الجامع ومُويس بن عمران جالس . فلما رآه مغتماً قال له : ماشأنك ؟ فحدَّثه الحديثَ . فأدخله المنزلَ وقرَّب اليه الطعامَ واعطاه خمسين ديناراً فدخل السوق . واشترى الدقيقَ وغيره . وحمله الحمالون الى داره . فأنكرت الام ذلكَ وقالت من اين لكَ هذا ؟ قال : من الكراريس التي قدَّمتها اليَّ »(٦٣٦) . ولكن هذه الحالة لم تدم . اذ انهالت عليه الهدايا والعطايا بعد ان اشتهر أمره وعرف بين كتاب عصره بقلمه الرفيع وانشائه البديع . وحينما زار بغداد حضر مجلس المأمون . فنال اعجابه واثنى عليه وقرَّبهُ وولاه رئاسة ديوان الرسائل . وكان هذا المنصب مهماً في الدولة لا يتولاه الاَّ مَنْ له مقدرة كبيرة ومعرفة واسعة بشؤون الكتابة . ولكنَّ الجاحظ لم يبق فيها اكثر من ثلاثة ايام . اذ بادر الى الاستعفاء معتذراً للخليفة . فأعفاه . وانصرف الى التأليف الذي اكسبه شهرة عظيمة وجعله ذا مقام محمود عند أرباب الدولة والمعنيين بالثقافة . وكان في اثناء ذلك يتنقلُ بين البصرة وبغداد وسامراء . وقام برحلات الى ديار الشام وزار دمشق وانطاكية . وكان النَّاسُ يتفاخرون بصداقته ومجالسته لحسن عشرته ووافر علمه وظرافة نوادره . ويعتزون بكتبه ويفرحون حينما تُوشَّحُ بأسمائهم . قال : « أهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبدالملك فاعطاني خمسة آلاف دينار . واهديتُ كتاب

---

(٦٣٤) امراء البيان ص ٢٨٧

(٦٣٥) معجم الادباء ٦ : ٥٦ .

البيان والتبيين الى ابن أبي دواد فأعطاني خمسة آلاف دينار . وأهديتُ كتاب الزرع والنخل الى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار » .(٦٣٧)

اعتنق الجاحظُ مذهبَ الاعتزال ونصره في كتاباته . وخالف أستاذه ابراهيم بن سيار النظام ببعض الآراء . وأيده في هذه الآراء طائفة من المتكلمين عرفوا بالجاحظية نسبةً اليه .(٦٣٨)

وكان صديقاً مخلصاً للوزير محمد بن عبدالملك الزيات . وحينما نُكب هذا الوزير وقُبضَ عليه زمن المتوكل سنة ٢٣٣ هـ « هرب الجاحظ . فقيل له : لِمَ هربتَ ؟ فقال : خفتُ أنْ أكونَ ثاني اثنين اذ هما في التنور ! يُريد : ماصُنع بمحمد بن عبدالملك من ادخاله تنوراً فيه مسامير كان هو صنعه ليعذبَ الناسَ فيه . فعُذبَ به حتى مات »(٦٣٩)

استقر في البصرة . وطالت به الحياة . وأُصيب بالفالج والنقرس .(٦٤٠) قال المبرد دخلتُ على الجاحظ في آخر ايامه وهو عليلٌ . فقلت له : كيف أنتَ ؟ فقال : كيف يكونُ من نصفه مفلوجٌ ولو نشرَ بالمناشير لما أحسَّ به . ونصفه الاخر منقرسٌ . ولو طار الذباب بقربه لآلمه . والأمر في ذلك أني قد جزتُ التسعين وأنشدنا :

أترجو أنْ تكونَ وأنتَ شيخٌ كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ
لقد كذبتك نفسكَ ليسَ ثوبٌ خليقٌ كالجديد من الثيابِ(٦٤١)

وأدركه الموتُ سنة ٢٥٥ للهجرة . وقيل وقعت عليه كتبه وهو شيخ ضعيف قد جاوز التسعين فقضت عليه .

**أخلاقه :**

كان الجاحظُ يمتلكُ شخصيةً قويةً وارادةً فذّةً . وكان متفائلاً يبدو عليه السرور . بسيطاً . متواضعاً . يخالط الناس جميعاً سواء كانوا اغنياءً ام فقراءً : حريصاً على مواعيده واوقاته . وفياً لاصدقائه . صادقاً في أقواله . محباً للنظام .

---

(٦٣٧) معجم الادباء ٦ / ٧٦

(٦٣٨) ينظر الملل والنحل للشهرستاني ص ٧١

(٦٣٩) امالي المرتضى ١ : ١٩٥